الفصل الثالث

محاكم التفتيش

بين العداوة لليهود والعداوة للمسلمين

قضية لاجارديا الغامضة: سفك دم الأطفال المسيحيين

كان أسمى هدف يتطلع إليه الملك فرديناند هو الاستيلاء على إسپانيا بكاملها وتدمير آخر معاقل المسلمين. ونظرًا لقداسة شخصية توركويادا للدور الذى لعبه فى الحرب ضد المسلمين، فقد كان من الطبيعى أن يتمتع بالسطوة والنفوذ لدرجة السيطرة أحيانًا على الملك والملكة، فضلًا عن أنهما واجها بعض المشاكل داخل مملكتها، ففى عام ١٤٨٤ كانت كاترين ملكة ناڤار الشابة تزمع الزواج من نبيل فرنسى شاب يدعى چان دالبرت، الأمر الذى شكل نوعًا من التهديد لاستقلال مملكة ناڤار التى كانت دائمًا مطمع الفرنسيين. وبطبيعة الحال انزعج فرديناند وزوجته من هذا الزواج وتغلغل النفوذ الفرنسى فى مملكتهما، وعهدا إلى الراهب توماس توركويادا بالتصدى لهذه المشكلة.

تميز حكم إيزابيلا لمملكتها كستيلا بفرض النظام واستتباب الأمن والقضاء على الجريمة، وإرغام أشراف البلاد على نبذ المنازعات وحلها عن طريق الالتجاء إلى القانون. واتبعت إيزابيلا سياسة مستقلة، حيث رفضت تدخل بابا روما فى شئونها، الأمر الذى أثار غضبه منها، ومما يدل على إصرارها على اتباع سياسة مستقلة عن الكنيسة الخاضعة لبابا روما، رغم شدة إيمانها بها قبل الحادثة التى وقعت فى مدينة تروكسيلو الإسپانية عام ١٤٨٦، حيث ارتكب قسيس إسپانى خطيئة غير خطيرة فقامت السلطة المدنية (أو الذراع العلمانية) بالزج به فى أحد السجون، وعز على رجال الكنيسة أن تنتزع منهم السلطة المدنية الحق فى محاسبة واحد منهم، وطالبوا بتسليمه إلى الكنيسة كى تحاكمه، ولكن القاضى المدنى رفض أن يجيبهم إلى طلبهم، ولجأ القساوسة والوعاظ إلى تهييج عامة الشعب الذين هاجموا السجن وأطلقوا سراح القسيس السجين وعدد من السجناء الآخرين. ولكن الملكة إيزابيلا استنكرت أعمال الشغب ورفضت التخويف، ورأت ضرورة إخماد هذا التمرد وتعزيز السلطة المدنية، ولهذا أرسلت جنودها إلى تروكسيلو لإعادة النظام إليها والقبض على زعماء الشغب والتمرد، وقدمتهم للمحاكمة فحكم عليهم بالإعدام كما حكم على المبشرين المحرضين بالنفى من إسپانيا، وبذلك وضعت حدًّا لتدخل الكنيسة فى شئون الدولة والأمور المدنية، وكان هدفها من وراء ذلك تحجيم النفوذ الباباوى فى إسپانيا.

قلنا إن محاكم التفتيش فى مملكة كستيلا صادرت ممتلكات المهرطقين وأدخلت أموالًا طائلة إلى خزانة الملك فرديناند، مما دعم الحرب التى شنها على غرناطة آخر معاقل المسلمين فى إسپانيا. وفى حين كانت محاكم التفتيش فى مملكة كستيلا قوية ومتينة، كانت محاكم التفتيش فى أراجون ضعيفة وهزيلة، ولأن الملكة إيزابيلا كانت تطمع فى توحيد إسپانيا والسيطرة على مقاليد الحكم فيها، فإنها رأت فى تدعيم توركويمادا وتقوية محاكم التفتيش السبيل إلى هذه الوحدة المرجوة، ومن ثم سعى فرديناند إلى بعث محاكم التفتيش فى أراجون وإحيائها. وفى أبريل عام ١٤٨٤ اجتمع البرلمان فى مدينة تاراكونا برئاسة الملك فرديناند الذى اصطحب معه الراهب توركويمادا، وأعلن عزمه على إنشاء محاكم تفتيش فى أراجون فى مثل قوة محاكم تفتيش كستيلا، وحتى يبين أنه جاد فى عزمه عين توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم تفتيش أراجون، وأصدر أوامره الملكية لأهلها بتقديم العون لها. ولم يضيع توركويمادا أى وقت، فقام على وجه السرعة بتجنيد اثنين من المحققين فى أراجون هما بيدور أربويز دى إپيلا كاهن كنيسة سرقسطة، والراهب الدومينيكانى جاسبار جاجلار.

ولكن أهل أراجون، وخاصة أثرياء اليهود المتحولين إلى المسيحية، رفضوا أن يعيشوا فى جو الرعب الذى عاش فيه أهل كستيلا، ولهذا قاموا بإرسال وفدين أحدهما إلى البابا والآخر إلى الملك فرديناند، وطالبوا باستمرار العمل بنظام أراجون القديم وعدم تطبيق تعليمات توركويمادا عليهم، غير أن البابا والملك رفضا إجابة هذين الطلبين، وبدأ المحققان فى ممارسة عملهما بكل جد وحماس، وكان حصاد هذا الحماس حرق عدد هائل من أهل سرقسطة فى شهرى مايو ويونيو ١٤٨٥. ويبدو أن أهل أرجوان انتقموا لأنفسهم بدس السم لأحد المحققين، جاسبار جاجلار، وكانت النتيجة أن زميله المحقق بيدور اتخذ سبيل الحذر فى مأكله ومشربه، ولم يأمن على حياته فسار محاطًا بحرسه الخاص ولابسًا درعه الواقى. وشعر اليهود الأثرياء الذين اعتنقوا المسيحية بالصدمة عندما قامت محكمة التفتيش فى سرقسطة بإلقاء القبض على واحد من أبرز أغنيائها هو ليوناردو إيلى، ورغم شدة وقع هذه الصدمة عليهم، فقد صمم نفر من وجهاء القوم وأصحاب النفوذ على المقاومة، فقام واحد من أهم اليهود المتحولين إلى المسيحية واسمه چوان بيدور سانشيز بتشكيل جبهة معارضة مكونة من نفر من رفاقه البارزين، وعقدت هذه الجبهة اجتماعاتها فى بيت يهودى متحول إلى المسيحية قريب من الملك فرديناند واسمه لويس سانتا نجيل، ورأوا أن السبيل الوحيد للتخلص من هول محاكم التفتيش هو التخلص من المحقق بيدور أريويز، وعرضوا مكافأة قدرها خمسمائة فلورين لكل من يتطوع لقتل هذا المحقق، فتقدم ستة رجال من بينهم رجل حاقد وموتور اسمه چوان دى إسبراندو يرغب فى الثأر لأبيه الذى عذبته محاكم التفتيش، غير أن المحقق

بيدور أريويز كان على يقين من كراهية الناس له، الأمر الذى جعله يتصرف دومًا بحذر وجعل من العسير للغاية اغتياله والتخلص منه. وأخيرًا اهتدى المتآمرون إلى فكرة الاختباء فى الكاتدرائية التى يعلمون أن بيدور لا بد أن يأتى إليها لإقامة قداس منتصف الليل، وانتهز المتآمرون عتمة الكنيسة وانشغال المحقق فى الصلاة على أصوات المنشدين والمرتلين ونجحوا فى القضاء على حياته، إذ لم تمهله جراحه البالغة أكثر من نهارين وليلتين ومات يوم ١٧ ديسمبر ١٤٨٥، ولكن اغتيال هذا المحقق أتى بعكس النتائج المرجوة؛ حيث إنه أثار الشعب ضد اليهود القتلة بدلًا من إثارته ضد محاكم التفتيش، وبات من الواضح أن الشعب فى سرقسطة على وشك الانخراط فى أعمال الشغب لولا أن ابن الملك فرديناند غير الشرعى الذى عينه والده رئيس أساقفة سرقسطة وهو فى السابعة عشرة من عمره كان موجودًا بالمدينة. ونزل هذا الابن غير الشرعى شوارعها ليواجه بنفسه الجمهور المتمرد ونصحهم بالانصراف فى هدوء، وتعهد بأنه سوف يقيم العدل بنفسه.

وفور علم توركويمادا بمقتل بيدور، قام بتعيين ثلاثة محققين آخرين دون إبطاء، هم الرهبان چوان كولفيرا، وبيدور دى مونتروبيو؛ وألونسو دى ألاركون. واحتمى هؤلاء المحققون الثلاثة فى قلعة الجافيريا يحيط بهم الحراس. وعلى الرغم من أن توركويمادا كان سعيدًا بتمكن ابن الملك الشاب من إخماد التمرد وقمع الشغب، فإنه كان يرغب فى إثارة مشاعر أهل سرقسطة ضد اليهود المتحولين إلى المسيحية، وتم القبض على الكثيرين وتعذيبهم، وبدأ التحقيق معهم لمعرفة الجناة، ولحسن حظ المتآمر چوان بيدور سانشيز أنه تمكن من الهرب من إسپانيا، ولكن شركاءه فى المؤامرة أُحرقوا أحياء ومعهم دمية تمثل سانشيز الهارب. وإمعانًا فى التنكيل باسبراندوا عوقب بالسير فى الشوارع المؤدية إلى الكاتدرائية وهو ينوء تحت حمل ثقيل، وما إن وصل إلى الكاتدرائية حتى قُطعت يداه ثم عُلق على المشنقة، ولكنه أنزل من عليها قبل أن يموت لاستئصال أعضائه التناسلية، ثم حملته عربة إلى مثواه.

وهكذا تم تصفية المقاومة ضد إقامة محكمة تفتيش فى سرقسطة، وأخذت هذه المحاكم تعمل بنفس الجد والنشاط الذى عملت به فى مملكة كستيلا، ونفذت العديد من أعمالها الإيمانية القاضية بالتخلص من حياة المهرطقين. وعندما أدرك أحد اليهود المتحولين إلى المسيحية أن مملكة أراجون لم تعد مكانًا آمنًا، هرب منها واحتمى منها بابن ملكة ناڤار، أنفانت جايم. وحتى تظهر محاكم التفتيش سطوتها، قامت بالقبض على ابن ملكة ناڤار وقدمته إلى المحاكمة بتهمة عرقلة أعمال المكتب المقدس، وهى تهمة تستوجب اتهام مرتكبها بالهرطقة. وبعد ثبوت التهمة عليه زج به فى السجن وحكم عليه بالجلد أثناء سيره حول الكنيسة. كذلك ألقت القبض على ابن أحد المتآمرين

اسمه جاسبار دى سانتا كروز الذى كان قد توفى قبل أن تتمكن محاكم التفتيش من إنزال العقاب به؛ لأنه ساعد والده على الهرب إلى تولوز، وألقى القبض على هذا الابن وطلب إليه التكفير عن ذنوبه بالذهاب إلى تولوز للتنقيب عن جثة والده وحرقها، واضطر الابن إلى تنفيذ هذا المطلب القاسى على النفس حتى يتمكن من تفادى الحرق حيًّا. والجدير بالذكر أن الكنيسة الكاثوليكية اعتبرت المحقق المغتال بيدور أريويز شهيدًا، وقام البابا پيوس التاسع بتنصيبه قديسًا فى القرن التاسع عشر، والذى لا شك فيه أن محاكم التفتيش فى إسپانيا كانت ستفقد الكثير من جبروتها وسطوتها لو أن شعب أراجون استمر فى التمرد عليها والثورة فى وجهها.

وتتمثل ذروة الاضطهاد الذى مارسته محاكم التفتيش الإسپانية عام ١٤٩٠ (أى فى نفس الوقت الذى اكتشف فيه الرحالة المعروف كريستوفر كولمبوس القارة الأمريكية ١٤٩٢) فى قيام توركويمادا بطرد جميع اليهود من إسپانيا.

بدأت قصة طرد اليهود من الأراضى الإسپانية برحلة قام بها يهودى متحول إلى الدين المسيحى اسمه بنيتو جارسيا، اقتضى منه عمله كتاجر صوف متجول الانتقال من مكان إلى مكان، وشاء حظ جارسيا السيئ أن يحل عليه ظلام الليل وهو فى الطريق فيضطر إلى المبيت فى حانة صغيرة فى قرية أستورجا، ونظرًا لازدحام الحانة لم يكن ممكنًا لهذا التاجر أن يستأجر لنفسه حجرة مستقلة مما اضطره إلى المبيت مع جماعة من اللصوص وقطاع الطرق الذين لاحظوا هندامه الحسن فقرروا سرقته أثناء النوم، وبينما هم منهمكون فى التنازع والاستيلاء على محتويات حقيبته لفت نظرهم وجود خبز بلا خميرة يستخدم قربانًا فى المناولة، وتعجب اللصوص من وجود هذا القربان فى حوزة اليهودى فاستنتجوا أنه ارتكب معصية كبيرة، وفى غمرة انفعالهم نسى اللصوص هدفهم الأصلى وهو السرقة وانقضوا على جارسيا وأصروا على اقتياده للقاضى وهو رجل على علاقة وثيقة بمحاكم التفتيش اسمه الدكتور بيدور دى فيلادا، كانت محاكم التفتيش قد وعدت بترقيته إلى منصب محقق، وأراد الرجل أن يثبت جدارته فطلب من جارسيا الاعتراف بأنه يمارس الطقوس اليهودية وأنه سرق الخبز غير المخمر لهذا الغرض الشرير، وارتسمت إمارات الرعب على وجه جارسيا فقد كثرت اتهامات المسيحيين الإسپان لليهود بأنهم يمارسون شعائر الدين اليهودى سرًّا ويخطفون الأطفال المسيحيين ويسفكون دماءهم من أجل استخدامها فى إقامة هذه الشعائر. وعبثًا أنكر جراسيا هذا الاتهام وعبثًا أصر على براءته. فقد أمر الدكتور بيدور دى فيلادا بجلده مائتى جلدة كبداية. وعندما استمر جارسيا فى الإنكار، طبقوا عليه عقوبة التعذيب بالماء (انظر كتابى «محاكم التفتيش»)، ولم يتحمل الرجل التعذيب فانهار واعترف بارتكاب كل التهم المنسوبة إليه،

اعترف بأنه تعمد وأنه تحول إلى المسيحية ولكنه انتكس وعاد إلى الدين اليهودى، وأيضًا اعترف بأنه قبل خمسة أعوام التقى بيهودى آخر تحول إلى المسيحية اسمه چوان دى أوسانا دأب على ممارسة الطقوس اليهودية ونصح جارسيا بالاقتداء به ولكن فى حيطة وحذر. واعترف الرجل بأنه سعى إلى التمويه على المسيحيين بإرسال أبنائه إلى الكنيسة حتى لا يشك فيه أحد، وأنه اعترف إلى قسيس بذنوب لم يرتكبها مطلقًا، وبأنه كان يسخر من المناولة، ويبصق سرًّا على الكرسى الباباوى. وكذلك اعترف بأن آخرين يشاركونه نفس المعتقدات مثل موسيه، ويوسيه وأبيهما كافرانكو. وعلى الفور قام فيلادا بالقبض على كافرانكو الذى كان فى الثمانين من عمره وابنه يوسيه البالغ من العمر عشرين عامًا، وكان من حسن حظ موسيه أنه مات قبل القبض عليه. واقتيد جميع المقبوض عليهم إلى سجن فى مدينته سيجوفيا، ولكن يوسيه سقط مريضًا أثناء سحبه فتجرأ وطلب أن يعوده طبيب يهودى حتى يستطيع أن يفهم لغته، كما طلب إحضار حبر يهودى للصلاة من أجله. وتظاهرت محكمة التفتيش بأنه لا تستطيع أن ترفض طلب رجل يحتضر، وكلفت أحد جواسيسها بزيارته فى زنزانته وإظهار العطف الشديد من أجل استدراجه لمعرفة أقرانه المهرطقين.

وجاء الطبيب يرافقه راهب دومينيكانى اسمه ألونسو إنركويز متخفيًّا فى هيئة حبر يهودى، تظاهر هذا الراهب بالعطف عليه ونجح فى خداعه تمامًا، وفى مرضه لم يكن يوسيه يدرك ما يقول فقد أدلى باعتراف بالغ الخطورة وفحواه أنه تم القبض عليه وبحوزته خبز غير مختمر من أجل استخدامه فى طقس يهودى يقتضى منه سفك دم مسيحى. وعندما استرد يوسيه عافيته تمالك حواسه ورفض أن يكرر اعترافه أمام الراهب المدسوس عليه أو يضيف عليه شىء آخر. ونظرًا لأن الأمر كان جد خطير، فقد تم تبليغ توركويمادا نفسه به، وكانت فرصته الذهبية فقد كان يأمل فى طرد جميع اليهود من إسپانيا دفعة واحدة، وإذ بهذه الفرصة النادرة تسنح له، وكل ما كان يحتاج إليه هو إقناع الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بالأخطار الناجمة عن الوجود اليهودى فى إسپانيا، ولم يكن هذا بالأمر السهل.

أشرف توركويمادا بنفسه على التحقيق مع يوسيه الذى وشى به بنيتو جارسيا، واعترف يوسيه بأنه توجه إلى بلدة لاجارديا منذ ثلاثة أعوام مضت لشراء القمح من عائلة من الطحانين، ودار الحديث بينه وبين البائعين حول استخدام الخبز غير المختمر فى إقامة الفصح اليهودى وبعض العادات اليهودية الأخرى، وأخبره الأربعة طحانين الإخوة أنهم اختطفوا طفلًا مسيحيًّا وقاموا بصلبه تمامًا كما صُلب المسيح من قبل على خشبة الصليب، وبعد إدلاء يوسيه بهذا الاعتراف الرهيب، تركته محاكم التفتيش معلقًا لمدة ثلاثة أشهر يضرب أخماسًا فى أسداس بشأن ما سيفعله

المحققون معه، وكان ذلك عام ١٤٩٠، وبعد فترة انتظار طويلة مرهقة للأعصاب وجهت إليه محاكم التفتيش عدة اتهامات أولها قوله إن المسيحية دين زائف وإن اليهودية دين يجدر بالمسيحيين أن يعتنقوه، وثانيها أنه خالط أناسًا قاموا بصلب طفل مسيحى فى يوم مقدس هو يوم الجمعة الحزينة، وثالثها أنه سرق القربان لاستخدامه فى أعمال السحر والشعوذة والزراية بالسيد المسيح.

وسمحت المحكمة لاثنين من المحامين بالدفاع، ورفض المحامين الاتهامات باعتبارها غامضة، وطلبت المحكمة مهلة مدتها ثلاثين يومًا لإثبات التهمة عليه، ورغم فشل الادعاء فى إثبات التهمة على يوسيه، فقد استمر حبسه فى زنزانة انفرادية وكادت العزلة تقضى على عقله، وحتى تستدرجه محكمة التفتيش دست عليه بنيتو جراسيا ووضعته فى زنزانة أسفل زنزانته كى يسهل عليها التجسس عليه، وتعمدت أن تترك شرخًا أو فجوة فى السقف بحيث يمكن للسجينين تبادل الحديث، وفى نفس الوقت اختبأ بعض الكتبة ليسمعوا الحديث الدائر بين الرجلين ويقومون بتسجيله، وذكر بنيتو جراسيا أن المحكمة قبضت على والده وقامت بتعذيبه قبل إحراقه ومن ثم فهو بائس فى حياته، ثم طلب من يوسيه أن يزوده بإبرة أو سكينة تساعده على إخفاء ختانه أى لإخفاء أنه يهودى، وحذره يوسيه من أن هذا خطر على حياته، وبالنظر إلى أن الشاب يوسيه كان يهوديًّا فلا جناح عليه فى الاحتفاظ بالخبز غير المختمر، ثم سأل بنيتو عن قطعة الخبز غير المختمر التى اشتراها (أى بنيتو) منه، وإذا كانت محكمة التفتيش قد اكتشفت وجودها معه، عندئذ أخذ بنيتو يلعن اليوم الذى تخلى فيه عن الشريعة الموسوية ليتحول إلى المسيحية فقد عاقبته محكمة التفتيش بتغطيسه فى الماء، وأعلن بنيتو أنه يتمنى أن يموت يهوديًّا كما كان، وكل هذا الحديث قام الكتبة بتسجيله.

بعدئذ استدعت المحكمة يوسيه وظلت تستجوبه حتى دب الإعياء فى أوصاله، فاعترف بأنه سمع طبيبًا يهوديًّا يقول إن اليهود حرضوا بنيتو جارسيا على سرقة القربان المقدس (أو الخبز غير المختمر) وإنه استولى على مفاتيح كنيسة لاجارديا حتى يتمكن من ارتكاب جريمته، وأضاف يوسيه أن الشكوك حامت حول بنيتو فألقى القبض عليه لمدة يومين، ولكن السلطات أطلقت سراحه لعدم ثبوت التهمة ضده، وذكر يوسيه أنه يعتقد أن أصدقاء بنيتو أرادوا الحصول على القربان المقدس لإقامة بعض الشعائر اليهودية. وتبين للمحققين أن يوسيه سوف يمدهم بمعلومات وفيرة، قال إن اليهود يصنعون القربان من الخبز غير المختمر كى يحموا أنفسهم من المسيحيين. ومما زاد الطينة بلة أن يوسيه اعترف بأن اليهود صنعوا تعويذة وضعوها خارج قرية لاجارديا، وأضاف أنهم انتزعوا قلب طفل مسيحى واستخدموه لصنع هذه التعويذة.

وأخيرًا قال يوسيه إنه على استعداد للإفصاح عن كل ما حدث شريطة الإفراج عنه وعن والده المحبوس، ووعدته محكمة التفتيش بالعفو عنه إذا قال الحقيقة، عندئذ قال إنه شاهد داخل الكهف المشار إليه قربانًا وقلب إنسان، وبطبيعة الحال سأل المحققون عن صاحب القلب المستخدم فأجاب بأنه قيل له إن القلب انتزع من جسد طفل مسيحى بعد صلبه، عندئذ قرر المحققون استدعاء والد يوسيه العجوز كافرانكوا من السجن، وقالوا له إن ابنه اعترف بكل ما فعله الضالعون فى المؤامرة وأصاب الفزع الرجل المسن فأكد حقيقة ما ذكره الابن وأنه (أى الرجل العجوز) شاهد بنفسه عملية صلب الطفل بعد أن وضعوا على رأسه إكليلًا من الشوك.

فى تلك اللحظة تهلل المحققون؛ لأنهم وضعوا أيديهم على فرصة العمر: قضية سفك دم طفل مسيحى وصلبه واستخدام هذا الدم فى إقامة الشعائر اليهودية.

استغرق التحقيق فى هذه القضية تسعة أشهر كاملة عقدت المحكمة بعدها جلسة المحاكمة، ولكن يوسيه أثناء المحاكمة رفض أن يؤكد ما سبق أن اعترف به، فأرسلته المحكمة إلى حجرة التعذيب فاعتراه الرعب وصرخ قائلًا إنه سوف يعترف بكل شىء، الأمر الذى أحرج محاميه فانسحبا من القضية. وهكذا ثبتت التهمة على الشاب فتخلت محكمة التفتيش عنه، أى أنها أسلمته إلى الذراع المدنى بعد أن أصدرت أعمالًا إيمانية (أى أحكامًا بالإعدام) ضد جميع المتآمرين، وبمجرد أن شاهد المحكوم عليهم الحطب تحت أقدامهم أعلن ثلاثة من اليهود المتحولين إلى المسيحية، وهم چوان فرانكو وچوان دى أوسانا وبنيتو جراسيا توبتهم ورغبتهم الصادقة فى العودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، ولهذا أظهرت السلطة المدنية الرحمة بهم فقامت بخنقهم قبل إلقاء أجسادهم فى اللهب.

والغريب أن كافرانكوا وابنه يوسيه أظهرا شجاعة منقطعة النظير، فأعلنا أنهما يهود وسيظلان يهودًا حتى الرمق الأخير، وأكدوا أنهم لن يتحولوا إلى أى دين آخر، وبسبب تشبثهما بدينهما قام الحراس بتمزيق لحم أذرعتهما وأفخاذهما بملقاط ملتهب فى لون الجمر حتى لا يتمتعا بميتة سريعة ومريحة، وعندما خبت ألسنة اللهب بعض الشىء امتنع الحراس عن إشعالها حتى يكون موتهما بطيئًا وأليمًا إلى أقصى حد.

والقارئ لتاريخ القرون الوسطى يعلم أن حكاية سفك دم طفل مسيحى وانتزاع قلبه لإقامة الشعائر اليهودية ليست جديدة على الإطلاق (راجع كتابى «الهرطقة فى الغرب» دار سينا للنشر). المهم هنا أن نذكر أن محاكم التفتيش فى إسپانيا التى زعمت أن اليهود استخدموا القربان المقدس

وقلب الطفل، اقتنعت بأنهم كانوا يقومون بحرقهما لتحويلهما إلى رماد وينثرونه فى الأنهار والآبار لتسميمها بهدف قتل المسيحيين.

والنتيجة أن توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش استطاع تأليب الشعب الإسپانى ضد اليهود، الأمر الذى أدى إلى اندلاع أعمال الشغب ضدهم، ومن ثم نفيهم، وبهذا نجح توركويمادا فى تنفيذ خطته الرامية إلى طرد جميع اليهود من إسپانيا.

الحرب على المسلمين

وفى عام ١٤٨٧ غادر الملك فرديناند مدينة قرطبة ليشن حملة عسكرية على مدينة فيليز بالقرب من مدينة مالاجا المسلمة التى تلى فى أهميتها مدينة غرناطة. وكان المسلمون فى إسپانيا مقاتلين أشداء غير أن تفككهم مكن المسيحيين منهم، وأبدى فرديناند فى حربه على المسلمين شجاعة تصل إلى حد التهور، وعندما نصحه المحيطون به باتخاذ أسباب الحكمة قال: «إننى لا أستطيع أن أقيم الاعتبار لفرص نجاتى طالما أن رعاياى يضحون بحياتهم من أجلى»، وهو الأمر الذى جعله يحظى بشعبية كاسحة بين الجنود الإسپان، وبسبب هذه الروح المقدامة سقطت فيليز فى يده وكادت مدينة مالاجا تدين له. كانت مدينة مالاجا واحدة من أغنى المدن تحت الحكم الإسلامى، فهى زاخرة بالحدائق الغناء وأشجار الزيتون والبرتقال، والنافورات المتلألئة، فضلًا عن رواجها التجارى بسبب وقوعها على شاطئ البحر. ولأن المسلمين كانوا يتحصنون فى مالاجا لم يكن من السهل على المسيحيين الاستيلاء عليها، وزاد من تحصينها تلك القلاع التى بناها المسلمون فيها، وذلك الحائط العظيم الذى بنوه حولها.

ونما إلى مسامع الملك فرديناند أن تجار مالاجا الأثرياء فضلوا الاستسلام الفورى خوفًا على ممتلكاتهم من الضياع، ولهذا فكر هذا الملك فى التفاوض معهم، ولكن المسلمين أبوا التفاوض وأصروا على الذود عن المدينة حتى النهاية، فبدأ المسيحيون فى حصار المدينة لمدة ثلاثة أشهر، وواجه جيش فرديناند مشكلتين مستعصيتين هما نقل ماء الشرب اللازم للجنود وانتشار الطاعون فى القرى المجاورة. وأرادت الملكة إيزابيلا أن ترفع روح الجيش المعنوية فلحقت بزوجها فى حومة الوغى، وما إن رآها الجنود حتى اشتط حماسهم، وكما أسلفنا كانت الخلافات بين قواد المسلمين سببًا فى ضعفهم فى حين كانت الوحدة التى أظهرها المسيحيون فى مملكتى أراجون وكستيلا سببًا فى انتصارهم، ويقال إن البارود استخدم لأول مرة فى أوروپا فى حصار ميناء مالاجا. ولما أحس المسلمون أنهم على وشك الاندحار عرضوا التفاوض مع فرديناند، ولكنه هذه المرة رفض قائلًا

إن زمن التفاوض ولى وانقضى، وطلب من المسلمين التسليم دون قيد أو شرط، فهدد المسلمون باستمرار المقاومة، وقتل أسراهم من المسيحيين. ولم يكترث فرديناند بهذا التهديد ومضى فى حصاره للمدينة والهجوم على القلاع، علمًا منه بتصدع جبهة أعدائه وتشردهم، الأمر الذى أدى إلى هزيمتهم، وأخيرًا دخل الملك فرديناند والملكة إيزابيلا المدينة، حيث حررا المسيحيين من العبودية والأسر، ثم قام الملك بأسر جميع سكان مالاجا المسلمين، واستدعاهم إلى فناء عظيم يعرف بفناء القصبة، وقال لهم إن ثلثهم سوف يرسلون إلى أفريقيا لاستبدالهم بالأسرى المسيحيين هناك، أما ثلثا المسلمين الباقين فسوف يؤول نصفهم إلى مملكة الدولة ويستخدم الملك والملكة النصف الآخر كهدايا يقدمانها إلى أصدقائهما الأجانب فى ناپولى والبرتغال وأوروپا. وكان أوفر المسلمين حظًّا أولئك الذين أرسلهم فرديناند إلى روما؛ حيث إنهم عوملوا بقدر ملحوظ من الرأفة فى عهد البابا إينوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢)؛ ولكى ندرك الفرق بين رأفة الكرسى الباباوى فى روما معهم أن البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) اكتفى بمناقشة ثمانين يهوديًّا منتكسًا ممن طردتهم إسپانيا من أراضيهم بأن ألبسهم فقط لباس التوبة الخشن ثم أدخلهم فى كنيسة سانتا ماريا وبلد منيرفا لطلب المغفرة ليعودوا بعد ذلك إلى منازلهم ويعيشوا فيها كمواطنين عاديين. حدث هذا فى عهد البابا ألكسندر السادس ذلك السفاح القاتل والشهوانى العربيد الذى يحلو له مواقعة محظياته فى حفلات صاخبة ماجنة، فى حين أن محاكم التفتيش تصرفت بوحشية بالغة وعلى نحو دموى فى عهد توركويمادا المشهور بطهره وقداسته وزهده فى الحياة الدنيا.

كان سقوط ميناء مالاجا فى يد المسيحيين كارثة للمسلمين فى إسپانيا؛ حيث إن عاصمتهم غرناطة اعتمدت فى حياتها على هذا المرفأ للتزود بالمؤن. فضلًا عن أن جميع سكان مدينة مالاجا أصبحوا برمتهم أسرى فى يد المسيحيين، وهكذا باتت غرناطة مهددة بالسقوط، غير أن الحرب ضد المسلمين توقفت بعض الوقت بسبب الاحتفالات التى أقامتها الملكة إيزابيلا عام ١٤٩٠ بمناسبة زواج ابنتها (إيزابيلا الابنة) من ألونسو ولى عهد البرتغال، وبعد انتهاء الاحتفالات الملكية عاد فرديناند وزوجته إلى استئناف الحرب للاستيلاء على غرناطة التى أبلى المسلمون بلاء حسنًا فى الدفاع عنها، وأدرك الملك أن غرناطة لن تكون لقمة سائغة وأنها لن تستسلم بسهولة، ولهذا قرر فرديناند حصار مدينة بالقرب من غرناطة يمكن لجيشه أن يتمركز فيها لفترة طويلة حتى يحين الوقت المناسب لخوض المعركة. وبسبب الفرقة فى صفوف المسلمين شعروا باليأس؛ ولذا طلب قائدهم أن يتفاوض سرًّا مع الملك، الأمر الذى أثار حفيظة أهل غرناطة ضده. وانتهز فرديناند هذه الفرصة للانقضاض على المسلمين حين تأكد انقسامهم على أنفسهم، وأخيرًا سقطت غرناطة فى أيدى المسيحيين فى ٢ يناير ١٤٩٢.

وبعد أن استولى الملك فرديناند وإيزابيلا على غرناطة، أصدرا أمرهما لليهود بمغادرة إسپانيا إلا إذا قبلوا العماد والتحول إلى الدين المسيحى، ولكن إحقاقًا للحق فعل الملك والملكة هذا بعد كثير من التردد، فهما يعلمان جيدًا مدى ثراء اليهود وإمكانية استفادتهما من هذا الثراء، غير أن ترددهما ما لبث أن تلاشى حين أصابت البلاد الهستيريا الدينية نتيجة ذيوع قصة لاجارديا وقيام اليهود بسفك دم الأطفال المسيحيين من أجل إقامة شعائرهم الدينية، وفى هذا الجو المشحون بالهستيريا ضد اليهود، تمكن توركويمادا ـ كما أسلفنا ـ من إقناع الملك والملكة بضرورة طرد اليهود من إسپانيا، وقد تم لتوركويمادا ما أراد بموجب المرسوم الملكى الصادر بطردهم فى يوم ٣١ مارس ١٤٩٢ وأرسل توركويمادا الرهبان الدومينيكان ليوضحوا لليهود فى محال إقامتهم أنهم يستطيعون الاستمرار فى البقاء فى إسپانيا والاحتفاظ بممتلكاتهم فى حالة اعتناقهم الدين المسيحى.

ومن جانبهم سعى اليهود إلى رشوة الملك بمبلغ كبير يصل إلى ثلاثين ألف دوقة لإلغاء أمر الطرد، وكاد فرديناند وإيزابيلا أن يقبلا الرشوة لولا تخويف توركويمادا الشديد لهما وتذكيرهما بأنهما يحذوان حذو يهوذا الأسخريوطى فى خيانة السيد المسيح، وكذلك حظر توركويمادا على الإسپان تقديم أية مساعدة لليهود فى محنتهم باعتبارها إساءة إلى الكنيسة.

وهكذا تشتت اليهود فذهب بعضهم إلى البرتغال، حيث قدم إليهم الملك يوحنا الثانى ملك البرتغال ممرًا آمنًا إلى القارة الأفريقية نظير مبالغ من المال. وذهب البعض حاملين معهم وباء الطاعون إلى إيطاليا ليحصد حياة الكثيرين منهم ومن الإيطاليين أنفسهم، كما أن بعض اليهود توجهوا إلى مدينة چنوا التى حظرت قوانينها بقاء أى يهودى على أراضيها لمدة تزيد على ثلاثة أيام، وكذلك تشتت يهود آخرون فى أرجاء العالم المختلفة مثل تركيا وفرنسا والشرق الأدنى، ولكن قلة منهم ذهبوا إلى إنجلترا، وفى طريق بعضهم إلى مدينة فاس بالمغرب تعرض اليهود لهجوم قطاع الطرق عليهم فسلبوا أموالهم واغتصبوا نساءهم، وأمام هذه الأخطار فضل عدد كبير منهم الذهاب إلى مستعمرة أفريقية تدين بالمسيحية يقال لها أركيلا، حيث اعتنقوا الدين المسيحى عن كره. حتى المسلمين الذين هزمهم فرديناند فى الحرب وجدوا أنفسهم –شأنهم فى ذلك شأن اليهود ـ مضطرين إلى اعتناق المسيحية.

يتضح لنا مما تقدم أن اليهود فى إسپانيا اضطروا إلى اعتناق المسيحية مرتين: مرة بعد عام ١٣٩١ عندما اندلعت أعمال الشغب الجماهيرى ضدهم، ومرة أخرى عندما أصدر الملك فرديناند عام ١٤٩٢ أمرًا بطردهم جميعًا من البلاد. ولكن هذا التحول إلى المسيحية لم يحل المشكلة ولعله خلق مشاكل أكثر واجهتها إسپانيا المسيحية، فالتحول فى كثير من الحالات لم يكن نتيجة اقتناع

بل من أجل الاحتفاظ بالأموال والممتلكات، ثم إن هؤلاء المسيحيين الجدد وجدوا صعوبة بالغة فى التأقلم مع الطقوس والشعائر المسيحية الجديدة عليهم، ولم يكن من السهل عليهم أن ينسوا ممارستهم اليهودية القديمة، وبالذات تلك الممارسات الخاصة بنوع الغذاء الذى تعودوا عليه، فلا عجب إذا رأينا تحولهم إلى المسيحية مثار الريبة والشك، وزاد من حنق المسيحيين الإسپان على اليهود المتنصرين أنهم كانوا بفضل ثرائهم ونفوذهم يحتلون أرفع المناصب فى المجتمع الإسپانى، ففى مدينة كوينكا وحدها فى أواخر القرن الخامس عشر، بلغت نسبة العائلات اليهودية المتحولة إلى المسيحية والتى تحتل أرفع المناصب فى مجلس المدينة ٨٥٪ من إجمالى هذه المناصب، بل إن الملوك والحكام قربوهم إليهم وأنعموا عليهم ألقاب النبلاء والأشراف، الأمر الذى أثار حفيظة عامة المسيحيين ضدهم، والأدهى من كل هذا أن هؤلاء الملوك والحكام عينوا الكثيرين منهم فى وظائف كهنوتية مرموقة مثل الحبر سليمان هاليفى الذى أصبح بعد تحوله إلى المسيحية أسقف قرطاجة والمفوض الباباوى ومؤدب هنرى الثالث، ومن العائلات اليهودية المتنصرة التى احتلت مكانة رفيعة فى بلاط مملكة أراجون عائلة سانتا نجيل، والجدير بالذكر أن أحد أفراد هذه العائلة واسمه لويس كان وزير الخزانة فى عهد الملك فرديناند، ويرجع إلى هذا الوزير الفضل فى تمويل أول رحلة قام بها كريستوفر كولمبوس لاكتشاف أمريكا، وفى نهاية القرن الخامس عشر كان معظم كبار رجال الإدارة فى مملكة أراجون من اليهود المتحولين. وفى اللحظة التى بدأت فيها محاكم التفتيش تمارس عملها كان خمسة من هؤلاء اليهود يشغلون أرفع المناصب فى هذه المملكة، وهم لويس دى سانتا نجيل ـ جابرييل سانشيز ـ سانكو دى باترونى ـ فيليپ كليمنت ـ ألفونسو دى لا كابالريا. وفى مملكة كاستيل كان هناك ما لا يقل عن أربعة أساقفة من اليهود المتحولين إلى المسيحية، كما أن الملكة إيزابيلا عينت ثلاثة من هؤلاء اليهود كمساعدين خاصين لها، فضلًا عن أنها عينت اثنين منهم هما دييجو دى فاليرا وألونسو دى بالنشيا كمؤرخين رسميين. وقد لفت فرديناند وإيزابيلا أنظار المبعوثين الأجانب بكثرة تعيينهم لليهود المتحولين إلى المسيحية فى مناصب مهمة وحساسة، إلى جانب اشتغال الكثيرين منهم فى المهن الحرة مثل التجارة وصناعة الفضة والجلود والغزل والنسيج، ولم يقتصر وجودهم على المدن بل امتد نشاطهم إلى الزراعة والريف.

وتعتبر مهنة الطب من أبرز المهن التى تفوق فيها اليهود المتحولون. حتى محاكم التفتيش وجدت نفسها مضطرة إلى الاستعانة بهم عندما فشلت فى العثور على أطباء بين المسيحيين، وفرنسيسكو لوبيز فيلابوس واحد من أشهر الأطباء اليهود فى بلاط الملك فرديناند والملك شارل الخامس. وتمتلأ سجلات محاكم التفتيش فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بأسماء الأطباء اليهود المتحولين إلى المسيحية.

ولهذا السبب ذهب المسيحيون الأصليون إلى أن اليهود المتحولين نجحوا فى اختراق النظام الكنسى، واتهمهم شانئوهم بالسعى إلى تدميره من الداخل. ولم يحتل اليهود المتحولون أرفع المناصب فحسب بل شغلوا أسمى الوظائف الدينية كذلك. فضلًا عن نجاح الكثيرين فى اختراق الطبقة الأرستقراطية الإسپانية، وهو الأمر الذى أثار حفيظة الشعب ودعا إلى تفجر أعمال الشغب فى توليدو (طليطلة)، وفى هذا العام رفع سكرتير القصر الملكى فرنان دياز تقريرًا إلى أسقف كونيكا ينبهه إلى أن غالبية طبقة النبلاء فى مملكة كاستيل (كستيلا) أصبحت تنحدر من أصول يهودية متحولة. ثم جاء كتاب آخرون ليؤكدوا هذه الحقيقة، ففى مملكة أراجون قام رجل له علاقة وثيقة بمحاكم التفتيش فى سرقسطة بتأليف كتاب بعنوان «كتاب أراجون الأخضر» يتتبع فيه أنساب طبقة النبلاء هناك مبينًا شدة اختراق اليهود المتحولين إلى المسيحية لهذه الطبقة، لدرجة أنهم أصبحوا يشكلون سوادها الأعظم، وتحتوى هذه الوثيقة الخطيرة التى تنتمى إلى العقد الأول من القرن السادس عشر على فيض غامر من مثل هذه المعلومات الفاضحة التى استخدمت للتشهير بالحكومة الإسپانية، ولم تستطع هذه الحكومة السكوت على حملة التشهير هذه فأمرت عام ١٦٢٣ بجمع كل نسخ الكتاب المشار إليه وحرقها، وشن المناوئون للحكومة الإسپانية حملة فى السر والخفاء أشد ضراوة. وذلك عندما فشل الكاردينال فرنسيسكو ميندوزا بوباديلا فى إدخال اثنين من أقاربه فى الجيش الإسپانى، فقد استشاط هذا الكاردينال غضبًا وقدم مذكرة إلى الملك فيليپ الثانى عرفت فيما بعد بعنوان «وصمة فى جبين طبقة النبلاء الإسپان» أوضح فيها أن غالبية الطبقة الأرستقراطية فى إسپانيا تنحدر من جذور يهودية متحولة، وقد توالى طبع هذه المذكرة حتى القرن التاسع عشر، ونفس الشىء فعله مؤرخ آخر هو لورنز جالنديز كارفاجال الذى رفع إلى الإمبراطور شارل الخامس تقريرًا جاء فيه أن أبرز أعضاء المجلس الملكى ينتمون إلى أصول يهودية اعتنقت المسيحية.

وأيضًا ينتمى بعض أهم المؤرخين الإسپان فى القرن الخامس عشر إلى أصول يهودية، مثل ألفار جارسيا دى سانتا ماريا (المتوفى عام ١٥٢٩)، وديبجو دى فاليرا (المتوفى عام ١٤٨٨)، وألونسو دى بالنشيا (المتوفى عام ١٤٩٢)، كما برز بين هؤلاء اليهود المتحولين شعراء كبار مثل چوان دى مينا (المتوفى عام ١٤٥٦)، وچوان دى إفلينا (المتوفى عام ١٥٢٩)، وانخرط فى هذا الجدال المحتدم عدد من اليهود المتحولين إلى المسيحية ليشنوا حربًا شعواء على بنى جلدتهم، مثل الأسقف بابلو دى سانتا ماريا الذى ألف عام ١٤٣٢ كتابًا لم ير طريقه إلى النشر إلا بعد وفاته، فضلًا عن الطبيب جوشوا هالوركى الذى هاجم اليهود فى كتاباته بلا رحمة أو هوادة، وكذلك هناك يهودى متحول آخر اسمه بيدور دى لاكاباليريا كتب عام ١٤٥٠ بحثًا هاجم فيه بنى إسرائيل.

وفى حين أن الكتب السالفة الذكر تخاطب الطبقة المثقفة، فقد ظهرت كتب أخرى تخاطب السوقة ورجل الشارع، ومن أهمها ذلك الكتاب الذى نشره الراهب الفرانسيسكانى ألونسو دى أسبينيا عام ١٤٦٠، والذى كان أب اعتراف هنرى الرابع فى مملكة كستيلا بهدف تهييج خواطر عامة الناس ضد اليهود بوجه عام واليهود المتحولين إلى المسيحية بوجه خاص، ويتصف هذا الكتاب بالاعوجاجية والافتقار إلى دقة المعلومات الخاصة بالمجتمع اليهودى، والكتاب يتهم الشعب اليهودى بأنه أمة من الخونة وشواذ الجنس والمجدفين وقتلة الأطفال والمتآمرين والمغتالين والمرابين.

ورغم أن المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد (أى اليهود المتحولين) استطاعوا فى مجملهم التعايش بشىء من الأمان فى القرن الخامس عشر، فقد شاهد عدد من المدن صراعًا وتنازعًا منهم حول السلطة والمصالح، وتفجر هذا الصراع بعنف فى مدينة طليطلة كبرى مدن مملكة كستيلا وأحد أبرز المراكز اليهودية فيها، وفى عام ١٤٤٩ نشبت القلاقل ضد آلفارو دى لونا وزير الملك چوان الثانى، واجتمع المسيحيون القدامى للاحتجاج على استمرار استئثار اليهود المتحولين بالوظائف العامة، وفى يونيه من نفس العام (١٤٤٩) وافق مجلس مدينة طليطلة على فرض حظر على تولى اليهود المتحولين إلى المسيحية للمناصب الرسمية فى مدينة طليطلة والبلدان التابعة لها، وحظر قبول شهادة هؤلاء المتحولين ضد المسيحيين القدامى فى ساحات القضاء، ولم يرض البابا نيكولاس عن هذا الوضع فأصدر فى ٢٤ سبتمبر ١٤٤٩ مرسومًا ندد فيه بفكرة استبعاد أى مسيحى جديد من تقلد الوظائف بسبب اختلافه فى الدم والجذور العرقية، وهو ما استنكرته أيضًا بعض السلطات الكهنوتية الإسپانية، ورغم أن الملك چوان الثانى طلب من البابا التسامح مع الذين يستبعدون المسيحيين الجدد من الوظائف، فإن هذا الملك اضطر أكثر من مرة إلى مسايرة المسيحيين القدامى فى استبعاد اليهود المتحولين من مجلس المدينة. وأيضًا اضطر الملك هنرى الرابع بعد انتشار أعمال الشغب فى طليطلة عام ١٤٦٧ إلى الموافقة على استبعادهم فى ١٦ يونيه ١٤٦٨، ولكن هذه المشاكل كانت ذات طابع محلى، كما أن أحداث الشغب الكبيرة المناهضة لليهود بعد عام ١٣٩١ أصبحت متفرقة، بل إن المدن حيث كان اليهود المتحولون يمثلون مراكز قوة مهمة لم يحدث فيها اندلاع لأعمال الشغب، وخشى بعض رجال الإكليروس من تفكك الكنيسة من جراء التمييز بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد، الأمر الذى دفع رئيس أساقفة طليطلة ألونسو كاريللو إلى أن يدين فى عام ١٤٦٨ إنشاء تنظيمات نقابية تستبعد المسيحيين الجدد وتنظيمات أخرى تستبعد المسيحيين القدامى، وقرر هذا الرجل أن العماد يقضى على أية فوارق بين المسيحيين سواء كانوا قدامى أو جدد، ولهذا أصدر رئيس الأساقفة المشار إليه قرارًا بمنع إقامة أية نقابات قائمة على

التفرقة بين المسيحيين على أساس العرق، وهدد بالطرد من الكنيسة كل من يقدم على إقامتها، غير أن الناس لم يكترثوا بهذا التهديد، وهكذا اتسعت الهوة بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى الذين نجحوا فى تهييج خواطر عامة الناس ضد اليهود المتحولين، وكما رأينا فإن عددًا كبيرًا من اليهود أرغم على اعتناق المسيحية دون اقتناع، مما أثار الشكوك حول صحة إيمانهم.

وفى نهاية القرن الخامس عشر واجهت إسپانيا مشكلات اقتصادية، فبدأ النزاع بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد يحتدم من جديد، ومعنى هذا أن النزاع فى جوهره لم يكن دينيًّا بقدر ما كان نزاعًا اقتصاديًّا وسياسيًّا. وتفجرت أسباب النزاع فى بعض البلدان الإسپانية دون غيرها، فشهدت طليطلة وسيوداد ريال أعمال شغب ضد اليهود المتحولين، فى حين تمكنت الطبقة الأرستقراطية فى إشبيلية من قمع هذا النزاع، وتعتبر مدينة بورجوس من المدن التى عانت من أعمال الشغب لعقد كامل من الزمن، وقد وقعت أسوأ هذه الأعمال الموجهة ضد اليهود الجدد فى العديد من مدن الأندلس وخاصة مدينة قرطبة.

لقد كانت الأسباب التى حدت بإنشاء محاكم التفتيش فى إسپانيا اقتصادية وسياسية أكثر من كونها راجعة إلى التصدى لانتشار الهرطقات، وكان وسط إسپانيا وجنوبها (أى كستيلا القديمة والجديدة والأندلس) مركز الصراع الدينى اسمًا، السياسى والاقتصادى فعلًا، وتميزت بؤرة الصراع بقربها من المناطق التى عاش فيها المسلمون وعدد كبير من اليهود، هذه المنطقة شاهدت من قبل تعايش الأديان الثلاثة (الإسلام ـ اليهودية ـ المسيحية)، ولكنه تعايش محفوف بالتوتر وينذر بالصدام، وتضاربت الآراء بشأن وضع اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية، فهناك من اعتبرهم يهودًا بسبب إجبارهم على اعتناق المسيحية، وهناك من رأى أنهم مسيحيون، وهناك من رأى أنهم لا هم يهود ولا هم بالمسيحيين. وأمام هذا الوضع الشائك والمعقد للغاية اختلفت الآراء وتباينت المواقف: فسكرتير القصر الملكى هيرناندو ديل بلجار يعترف بوجود عدد كبير من اليهود المتحولين الذين يمارسون الطقوس اليهودية سرًّا ويتظاهرن بالمسيحية علنًا، وبعض اليهود رغم تحولهم لا يزالون يلبسون ملابس اليهود ويأكلون نفس طعامهم، وهم محط احتقار المسيحيين الأصليين واليهود على حد سواء، فاليهود يزدرونهم لأنهم نبذوا دينهم، والمسيحيون الأصليون يرمونهم بالنفاق، ثم إن كثيرًا من اليهود المتحولين لم ينسوا ذكريات اضطهاد المسيحيين لهم فى عقدى الأربعينيات والسبعينيات من القرن الخامس عشر، ويذهب بولجار إلى وجود عناصر يهودية مخلصة فى إيمانها بالمسيحية، ولكن يرى أن معظم اليهود المتحولين تأرجحوا بين الدينين وجمعوا بين عاداتهم اليهودية الراسخة واتباع الشكليات الخاصة بالدين المسيحى، ولعل عائلة أسقف سيجوفيا دييجو أرياس دافيلا (١٤٣٦ ـ ١٤٩٧) نموذج واضح لهذا التأرجح بين الدينين.

ومع أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر سادت بين المسيحيين القدامى الإسپان نغمة تتهم اليهود المتحولين بالتظاهر بالولاء للدين المسيحى فى حين أنهم فى قرارة قلوبهم يتمسكون بدينهم اليهودى ويمارسون شعائره سرًّا أحيانًا وجهرًا أحيانًا أخرى. كما تتهمهم بالسعى إلى تدمير العقيدة المسيحية واقتلاعها من جذورها، وذهب المؤرخ المعادى للسامية بيرنالديز فى كتابه «ألبورايكو» إلى أن جميع المسيحيين الجدد لا يخرجون عن كونهم يبطنون الهرطقة ولا يصرحون بها، والجدير بالذكر أن تاريخ تأليف هذا الكتاب جاء بعد انقضاء عقد على إنشاء محاكم التفتيش الإسپانية. وعلى أية حال لم يكن من السهل على المحققين فى هذه المحاكم أن يحددوا على وجه الدقة معنى التهويد، وخاصة لأنهم كانوا يجهلون تفاصيل الشريعة الموسوية. وفى عام ١٤٨٤ أدانت محاكم التفتيش امرأة تدعى إينيس دى بيلمونت لأنها تأخذ راحتها يوم السبت، رغم أنها لم تكن تدين بأى من المعتقدات اليهودية الأخرى. ويدلنا هذا على أن تهمة التهويد التى أدين بسببها كثير من اليهود المتحولين كانت فى أحيان كثيرة مختلقة وليس لها أساس من الصحة، ولهذا كان من الطبيعى أن تلعب الشهادة الزور دورًا كبيرًا فى توجيه الاتهامات الباطلة ضد اليهود المتحولين، وهذا ما يؤكده مسيحى جديد من أراندا فى عام ١٥٠١ حين قال إن قيام محاكم التفتيش بإحراق معظم اليهود المتحولين المتهمين بالمروق عن المسيحية جاء نتيجة شهادات زور، ورأى كثير من القاطنين مع هؤلاء اليهود المتحولين أن القول بمروقهم عن المسيحية لا يعدو أن يكون محض كذب وافتراء، ويضيف الرجل قائلًا إن محاكم التفتيش أحرقت من أحرقت بسبب رغبتها فى الاستيلاء على ممتلكاتهم، الأمر الذى جعلها تختلق جريمة الهرطقة.

وهكذا نرى اختلافًا كبيرًا بين الباحثين والدارسين حول حقيقة هرطقة المسيحيين الجدد، والجدير بالذكر أن أعضاء مجلس مدينة برشلونة قالوا عام ١٤٨٦ بجلاء إلى المحقق الجديد الذى عين فى محكمة تفتيش هذه المدينة «نحن لا نعتقد أن جميع المسيحيين الجدد هراطقة أو أن تحول اليهودى إلى المسيحية يجعل منه مهرطقًا» وذهب كثيرون إلى أن معظم المسيحيين الجدد يمارسون الشعائر المسيحية باستثناء قلة ضئيلة منهم تعاطفت مع الديانة اليهودية، وعلى النقيض من ذلك نرى فى مدينة طليطلة عام ١٤٨٣ شاهدًا يستعين به الادعاء فى محاكم التفتيش يؤكد أن معظم المسيحيين الجدد فى طليطلة يؤمنون باليهودية، ومما زاد من تعقيد الأمور أن المسيحيين الجدد اتبعوا سياسة انعزالية، وامتنعوا عن الاختلاط باليهود والمسيحيين على حد سواء، وبحلول منتصف القرن الخامس عشر أصبحوا أقلية كبيرة العدد يعمل لها ألف حساب، وبلغت ثقتهم بأنفسهم مبلغًا جعلهم يتباهون بالانحدار من أصول يهودية ولم يحاولوا إخفاء هويتهم الدينية الأصلية

على الإطلاق، يقول المؤرخ أندريه برنالديز فى هذا الشأن «أنهم بخيلاء وصلف يعتبرون أنفسهم أفضل شعب أنجبه العالم»، وتصرفوا كأمة مستقلة عن العالم المسيحى القديم معتبرين أنفسهم أفضل من المسيحيين القدامى؛ لأنهم ينحدرون رأسًا من نسل السيد المسيح، ويقال عن المسيحى الجديد ألونسو دى كارتاجينا أنه اعتاد إنهاء صلواته بالعبارة التالية «يا مريم المقدسة أم الرب التى تربطنى بها قرابة الدم، صلى من أجلنا» باختصار اعتبر المسيحيون الجدد أنفسهم خير أمة أخرجت للناس، ولهذا نرى دييجو دى فاليرا يتساءل «وهل هناك أمة فى مثل نبل اليهود؟».

وبعد تحول اليهود إلى المسيحية على نطاق واسع بعد مجازر عام ١٣٩١، لم يكن من السهل عليهم التأقلم مع كنائس المجتمع المسيحى الجديد عليهم، ولهذا قامت برشلونة وبلنسية بتخصيص معابد يهودية لهم لاستخدامها ككنائس. وفى مملكة أراجون كان المسيحيون الجدد يطلقون على أنفسهم بفخر «مسيحيو إسرائيل» وبسبب اتباعهم سياسة العزلة اقتصر زواجهم على بعضهم البعض؛ وأنحى عليهم المجتمع المسيحى بالملامة لصلفهم ووقاحتهم وزهوهم بما يملكون من مال، الأمر الذى زاد الفجوة بينهم وبين المجتمع المسيحى، وانعكس هذا بطبيعة الحال على موقف محاكم التفتيش المعادى لهم. والجدير بالذكر أن المحقق الراهب الدومينيكانى رامون بنيافروت فى القرن الثالث عشر، ونظيره بيكلو إيمريك فى القرن الرابع عشر لعبا دورًا بارزًا فى إضفاء روح معادية للسامية على محاكم التفتيش، حتى قبل أن تبدأ فى الاضطلاع بتقديم اليهود إلى المحاكمة.

***